الناحية المعنوية كان ينبوعاً للحياة . اما عقله الذي كان في موقع وسط بين البيزنطينية(*) Byzantinisme وبين متطلبات الجسد فكان عنيفا بطبعه . وكان يجد من الناحية الفكرية صعوبة في تفهم الشدة التي يبديها الله في غضبه على عباده ولكن طريق الشك او عدم الايمان كان مع ذلك مغلقا تماما أمامه . فهو لا يشك ابدا . وبما انه كان مؤمنا ثابتا على ايمانه فقد توجب عليه أن يرى في المصائب التي يرسلها الله عقابا على الخطايا . وصلواته وخشوعه كان يقدمها تكفيراً عن خطايا شعبه . والحملة على قازان إنما قام بها بنية الحصول على رضا الله عنه وعن بلده روسيا . ولو انه كان يعرف وسيلة يتصرف بها كما تصرف المسيح بأن يقدم نفسه ضحية وفداء وكفارة عن كل الذنوب التي اقترفتها روسيا لما تردد في فعل ذلك . كان يقدم تضحيته بحسب ما يعرف ويدرك ولكنه لم يكن يستطيع ان يوقف يد الله التي كانت تضرب دون أن يعرف سببا لها في ذلك . وفي عام ١٥٥٣ ظهرت غيوم غطت النور السماوي وجعلته مظلما وسودت وغيرت نور النهار الى ليـــل .

في معركته الدينية لمصلحة شعبه كان إيڤان يتلقى المساعدة من الكاهن سيلڤستر الذي فسر الحملة على التتر تفسيرا صليبيا . ولكن على هذا السرير الذي كان يشبه سرير موت في آذار من عام ١٥٥٣ بدا له ان سيلڤستر قد تخلى عنه وان هذا الراهب لم يكن منفصلا عن هذا العالم وإنما كان يعمل من اجل مستقبله ويبذل فيه اهتمامه . فلو ان القيصر مات وان سيلڤستر تزوج القضية الخاسرة فانه قد يضيع كل نفوذ . فالمسألة كانت هل سيربط سيلڤستر مصيره بمصير عائلة القيصرة آل زاخارين أو سيربطه بعصبة ابن عم القيصر فلاديمير اندرييفتش . وقد بدا لسيلڤستر أن الأمير فلاديمير سيكون هو الأقوى فسانده ، وفعل مثـــل ذلك الكسي اردااتشيف وكذلك ابوه فيدور .

(*) البيزنطينية ميل الى المناقشات اللاهوتية على الطريقة البيزنطية — المترجم —